رقيّة

ذات الهجرتين

الخطيبتان ـ ظلال على الأفق ـ فى
بيت أبى لهب ـ مع حمالة الحطب
ـ النجاة ـ زواج جديد ـ الهجرة
الاولى ـ الهجرة الثانيـة ـ ماتم
فى يوم النصر ! ـ الثرى الطهور !

لم يكن قد مضى على زواج « زينب » من ابى العاص بن الربيع غير وقت قصير ، حين استقبل البيت المحمدى وفدا من آل عبد المطلب ، جاءوا يلتمسون مصاهرة ابن عمهم الامين ، وقد خافوا أن يسبقهم اليه كفء كريم من شباب قريش

وكانت الشقيقتان رقية وأم كلثوم ، على مألوف عادتهما من الملازمة ، حين وفد القوم ، فقالت أم كلثوم وقد عرفت بفطنتها فيم جاءوا :

ـ ما ارى دورك الا قد حان يارقية

وقبل أن تهم رقية بجواب ، أقبلت « فاطمة » تقول ردا على ماسمعت من كلام اختها :

ـ بل جاء دوركما معا !..

ذلك انها كانت تنعم بملاعبة ابيها حين جاء الضيوف ، فلم تشأ أن تفارقه ، بل انتظرت وفى حسابها انهم قد ينصرفون على عجل ، فتستأنف ماكانت تحظى به من صحبة ابيها

واتيح لها بذلك أن تسمع قول شيخهم ابى طالب :

ـ انك يا ابن العم قد زوجت زينب لابى العاص بن الربيع ، وانه لنعم الصهر ، غير أن بنى عمك يرون لهم عليك مثل ما لابن اخت خديجة ، وليسوا دونه شرفا ونسبا

اجاب محمد :

ـ صدقت ياعم

واستطرد الشيخ يقول :

ـ وقد جئناك نخطب ابنتينا رقية وام كلثوم ، وما أراك تضن بهما على ابنى عمك

قال محمد :

ـ معاذ القرابة والرحم ، ولكن هلا أمهلتنى ياعم حتى أتحدث فى هذا الى ابنتى ؟

ولم تنتظر « فاطمة » لتسمع أكثر من هذا ، بل اسرعت تعدو الى اختيها فى بهو الدار وأسرت اليهما بالنبأ الخطير

ووجمت الاختان لما سمعتا ، فقد كان الامر كله مفاجأة غير متوقعة ، ومن ثم تعطلت مشاعرهما واستغرقهما جمود صامت ، ثم راحت كل منهما تنظر الى الاخرى ، وكأنهـا تستنجد بها او تحاول أن تستبين موقفها ، لكن بصريهما ارتدا اليهما بغير جواب

هنالك التفتتا معا الى « فاطمة » وقالتا بصوت واحد :

ـ فهل عرفت لاى ابناء العم يسعى جدنا الشيخ ؟

أجابت الصغيرة :

ـ كلا ، فما أطقت صبرا بعد ان سمعت حديث الجد ، وبادرت اليكم بالنبأ دون انتظار لما وراءه

وأطرقت لحظة مفكرة ثم قالت بصوت خفيض ، وكأنها تحدث نفسها :

ـ وماذا يعنينى من اسم الخاطبين ؟ فليكونا من يكونان ، فلن يتغير الموقف فى كثير او قليل ، وعما قريب يتكرر المشهد القاسى ، وتنتزع رقية وام كلثوم من بيتنا كما انتزعت اخت

لهما من قبل ، وتنقلان الى دار اخرى غير هذه الدار ، وابقى هنا وحدى ، بغير اخت !

واغرورقت عيناها بالدموع ، حين اقبلت امها تلتمس اختيها ، ولم يفت الام فى اشتغالها بالامر المهم ، ان صغيرتها فاطمة تبكى ، فانعطفت اليها تسألها فى حنان :

ـ مايبكيك ياصغيرتى ؟

اجابت وهى تتشبث بها معانقة :

ـ لاتدعى احدا ينتزعنى منك ومن أبى ، فلست اطيق فراقكما

فتبسمت « خديجة » ضاحكة من قولها ، واجابتها :

ـ كلا ، لن تتركينا ياحلوة ، حتى تريدى انت !

فصاحت « فاطمة » بملء سذاجتها :

ـ لكنى لن أريد !

وعقبت الام هامسة فى رقة وشجو :

ـ كذلك تقولين الآن ياصغيرتى ، وكذلك كنا نقول من قبل

واسبلت جفنيها حالمة ، وارتدت بها الذكرى الى اربعة عشر عاما مضت ، فرأت نفسها تعيش خلية البال قد نفضت يديها من الرجال وصممت على الا تتزوج ، حتى لقيت محمدا فلم تنتظر حتى يتقدم اليها خاطبا ، بل كانت هى التى سعت اليه ، غير مكترثة بما قد يقول الناس ، ولا ملقية بالا الى مايحتمل ان يلقاها به المجتمع القرشى ، حين يبلغه نبأ سعيها للزواج من شاب فقير ، وهى التى ردت خاطبيها من سراة قريش وكبار رجالها . وهذه هى تقف بعد اربعة عشر عاما من زواجها بمحمد ، لتبارك اليوم السعيد الذى

لقيته فيه ، وتستعيد ذكراه الحلوة ، فتشعر بدفء الحب يذود عنها برودة الشتاء وهى تدنو حثيثا من عامها الخامس والخمسين !

وآبت من حلمها الهنىء الذى ماتزال فى نشوة منه ، فاذا صغيرتها « فاطمة » تبادرها سائلة :

ـ من يكون الخاطبان ياام ؟

اجابت فى ايجاز وهى ترنو الى رقية وام كلثوم ، وقد وقفتا غير بعيد تصغيان :

ـ عتبة وعتيبة ، ابنا العم ابى لهب !

وأطالت النظر الى ابنتيها لتلمح وقع الجواب عليهما ، لكنهما انسحبتا الى غرفتهما فى سكون ، دون ان تنبسا ببنت شفة

وتبعتهما فاطمة

وبقيت الام وحدها وقد شعرت بانقباض لا تدرى سببه فعللته بقرب فراقها لابنتيها ، على انها ما لبثت بعد فترة تأمل ، ان عرفت فيم انقباضها . لقد كانت لا تستريح الى « ام جميل بنت حرب » زوجة ابى لهب وام ولديه ، ففيها شىء من قسوة القلب وشراسة الطباع وحدة اللسان .. وفيها كذلك صلف احمق وطيش اهوج ينايان بها عما يجب لمثلها من اتزان ووقار ، ويفقدانها ذلك السمت الجليل الذى يغلب على السيدات القرشيات ، وقد اشفقت « السيدة خديجة » على ابنتيها من معاشرة هذه المرأة ، فما لهما بها قبل وما تزالان صغيرتين غريرتين ، ولو ان الامر بيديها لحالت دون اتمام هذا الزواج المقترح ، لكنها تخشى ان هى

فعلت ، ان تثير ثائرة الهاشميين عليها ، وتتعرض لاتهامهم اياها بأنها تحاول ان تمزق ما بين محمد وآله من اواصر القربى

والسيدة خديجة الى جانب هذا ، تعرف لام جميل انتماءها الى بيت قرشي كبير ، ولن تسكت على مهانةالرفض بل ستسعى جهدها لتؤلب قومها على خديجة ، وانها لقادرة على ان تفعل ، وحسبها ان تتناولها بلسانها السليط وتنطلق فى المجتمع القرشي متحدثة بما شاءت وشاء لها حقدها من مفتريات

وكانت السيدة خديجة بحيث تفضي الىزوجهابمخاوفها، فما اعتادت قط ان تخفى عنه شيئا مما يهجس به خاطرها او يجول فى سريرتها ، لكنها كرهت ان تشغل محمدا بهذه الهواجس ، وهى تراه مشغول البال دائم التفكير منصرفا عن شواغل الدنيا ، وانها لتدرك بفطنتها وقوة حبها لمحمد ، ان ثمت امرا خطيرا يشغله ، وان لم تدر كنه هذا الامر ، ولا هى بحيث تحمله على الافضاء به اليها قبل ان يفعل ذلك هو من تلقاء نفسه ، وانما حسبها ان توفر له ما يحتاج اليه من هدوء وسلام ، وان تحوم حوله من غيران تثقل عليه، وترمقه فى وحدته بعين ساهرة ، دون ان تقتحم عليه هذه الوحدة

وما كان لها وهى الحريصة على طمأنينته ان تعكر هدوءه بمخاوفها من ام جميل بنت حرب ، او تشغله بالصراع بين حرصه على هناءة ابنتيه ، وبين بره بقومه واحترامه لاعمامه واعتزازه بعشيرته الهاشميين ، او تعرضه ــ وهو فى حالته تلك ــ لعداوة ابى الهب وبغضاء امرأته

وفى الغرفة القريبة ، كانت الفتاتان مطرقتين ساهمتين ، واختهما الصغرى ترقبهما فى حيرة : ان الامر اليوم ليختلف عما شاهدت من « زينب » فلقد كانت بادية البشر والاشراق تستعد للفرح فى غبطة وعلى استحياء ، اما رقية وام كلثوم فتبدوان أقرب الى الاكتئاب والقلق . ولم تستطع طفولة فاطمة ان تميز بين زواج قام على المودة والتعارف والالفة ، وآخر تعقده مصالح الاسرة وروابط الدم لا غير

والم تتبادل الاختان حـــديثا عن حياتهما المقبلة ، لكن افكارهما كانت تدور بلا ريب فى مدار واحد : ما بال الاسرة تتعجل زواجهما ، هلا اتاحت لهما وقتا تألفان فيه فكرة الانتقال الى دار ابى لهب ؟

وفى الحق انهما ما انكرتا من امر عتبة وعتيبة شيئا واضحا محددا ، فهما بعد من فتية آل هاشم الامجاد ، ولهما كذلك فى بنى عبـــد شمس عز الخؤلة وصراحة النسب القرشى الكريم ، اما العم ابو لهب ، فله ــ الى جانب حسبه وثرائه ــ مكرمة سابقة هيهات ان يجحدها آل محمد ، فانه ما كاد يسمع بشرى مولد محمد ابن اخيه عبد الله ، حتى اعتق جاريته ثويبة التى حملت اليه البشرى السعيدة

وما غاب شىء من هذا عن بال رقية وام كلثوم ، لكنهما رغم ذلك تجفلان من فكرة الانتقال الى بيت العم ، ايكون هذا لانهما لم تألفا بعد الوضع الجديد ، ولم يتح لهما وقت لتأخذا نفسيهما بالرضى عنه ؟ ام لعلهما تكرهان ان تستبدلا بالعيش مع أمهما السيدة المهذبة اللطيفة الوقور ، عشرة « ام جميل » ذات السمت السوقى والطبع الجامح الحاد ؟ أو من يدرى ، لعلهما احستا بهدى الفطرة ، فطرة حواء التى

قلما تخطىء فى مثل هذا ، ان لام جميل على ولديها من السلطان ما يجرح عزة رجولتهما ، ان لم يلغ شخصيتهما الغاء

وقالت ام كلثوم لرقية :

ـ انك لتعلمين ان ابانا لن يقضى هذا الامر دوننا ، فماذا ترينك فاعلة ؟

فشحب وجه رقية وهى تجيب :

ـ لست بالتى تعق اباها ، فتعرضه للحرج امام اهله وعشيرته الادنين

ثم رنت الى اختها وقالت تشجعها فى رقة وعطف :

ـ لا عليك يا اختاه ، فسنكون معا

وكذلك تم الامر فى هدوء مشوب بالقلق ، وبارك محمد ابنتيه ثم تركهما فى حراسة الله ورعايته ، وانصرف الى ما كان يشغله من تعبد وتأمل

وكذلك شغلت السيدة خديجة عن ابنتيها بالتفكير فى زوجها الحبيب ، وقد ازداد ميلا الى الوحدة واغراقا فى التأمل ونزوعا الى الصمت ، وبدا كأنه نفض يديه من شواغل الدنيا وانطوى على نفسه يعالج وحده ذلك الهم الجليل الذى يكتمه حتى عن خديجة ، موضع حبه وثقته وسكنه

ليته يدعها تشاركه الهم وتحمل معه العبء الذى تحسه ثقيلا باهظا ! ليته يرحمها مما تعانيه من قلق ووحشة ، فيفضى اليها بالذى يشغل باله

وفجأة ، لاح لها فى هداة الليل قبس من نور اضاء الظلمة

التى اغرقت الكون من حولها ، وتناهى الى مسمعها فى ذلك الصمت العميق ، صدى من قول « ورقة » ابن عمها نوفل :

لججت وكنت فى الذكرى لجوجا
لهم طالما بعث النشيجا
ووصف من خديجة بعد وصف
فقد طال انتظارى يا خديجا
ببطن المكتين على رجائى
حديثك ان ارى منه خروجا !

ثم صمت الصدى ، وعاد السكون يلف الكون الهاجع ، فأغمضت خديجة عينيها ، واستسلمت للرقاد بعد ان الح عليها السهاد

ومضت ايام وليال ، كثر فيها خروج محمد الى غار حراء وقلب خديجة يصحبه مطيفا به محوما عليه ، وان بقيت بجسمها فى البيت ، تعد له زاده ، وتبعث وراءه من يحرسه ويأتيها بأنبائه ، وترصد مطلع النور المرتقب

وقد تذكر ابنتيها رقية وام كلثوم ، فيرق قلبها رحمة لهما واشفاقا عليهما مما قد تلقيان فى عشرة « أم جميل » لكنها لا تلبث ان تنسى همها ذاك فيما يملأ دنياها من طلائع الامر الجليل المرتقب

ولم يكذب السيدة خديجة ظنها

فما كاد محمد صلى الله عليه وسلم يتلقى رسالة ربه ويدعو الى الدين الجديد ، حتى اخرجت « رقية وام كلثوم » من بيت ابى لهب ، وردتا الى بيت ابيهما

وكانت قريش قد ائتمرت بالرسول فى بناته قائلة :

ـ انكم قد فرغتم محمدا من همه ؛ فردوا عليه بناته فاشغلوه بهن

ومشوا الى اصهار الرسول الثلاثة ؛ فقالوا لهم واحدا بعد الآخر :

ـ فارق صاحبتك ونحن نزوجك اى امراة من قريش شئت

فاما « ابو العاص » فابى مؤثرا صاحبته على نساء قريش جميعا ، واما ابنا ابى لهب فاستجابا على الفور ، واختار عتبة زوجة من آل سعيد بن العاص ، بدلا من « رقية بنت محمد »

وفى الحق ؛ ان ابنى ابى لهب لم يكونا بحاجة الى سعى من قريش فى طلاق العروسين ؛ فلقد تكفلت به « ام جميل بنت حرب » من قبل ؛ حين اقسمت الا يظلها وبنتى محمد سقف ، ثم مازالت بزوجها ابى لهب حتى اثارت حفيظته على البنتين البريئتين ، فقال لولديه :

ـ راسى من راسيكما حرام ان لم تطلقا ابنتى محمد .

وكان الظن بابنى العم الا يفعلا

بل كان الظن بالعم الا يقف هـذا الموقف من حفيدتى أخيه عبدالله ، وابنتى محمـد الذى ابتهج بمولده واعتق جاريته حين بشرته به

لكن ام جميل كانت وراءه ، تسوقه امامها مسـلوب النخوة مضيع المروءة فاقد الارادة ؛ وتسمم الدم الهاشمى الذى يجرى فى عروقه ؛ وتنسيه ماتوجبه عليه عمومته لمحمد من نجدة وحفاظ

لكأنما ارادت هذه العبشمية ان تكيد لبنى هاشم ؛ الذين

استأثروا بأكثر المجـــد والسلطان دون قومها بنى عبـــد شمس ، فراحت تفرق شمل الهاشميين وتمزق اواصرهم وتضرب بعضهم ببعض

أو كأنما ارادت هذه المراة الحقود ، أن تشفى غليلها من « خـــديجة بنت خويلد » التى كانت ملء العيون مهـــابة وجلالا ، ملء الآذان عفة وطهرا ، فراحت تؤجج غضب القوم على محمد ، لتغيظ غريمتها خديجة وتفسد عليهـــا سعادتها التى كانت مضرب الأمثال .

ولم يكفها أن ردت اليها ابنتيها طالقين ، بل خـــرجت ومعها زوجها ابو لهب الى صميم المعركة بين محمد وقريش ، فما رؤى أحد أشد عداوة منهما لنبى الله ، ولا بلغ أحد من اذاه قدر ما بلغا ، ولا سمع ان احدا من بنى هاشم ظاهر قريشا على حفيد هاشم ، كما فعل ابو لهب !

وانه لموقف يدعو حقا الى الدهشة والعجب

وليس مثار الدهشة ان أبا لهب لم يسلم ، فكذلك بقى اكثر الهاشميين على دين آبائهم زمنا طال او قصر ، لكنهم مع ذلك أبوا أن يخذلوا ابن عبدالله أو يسلموه

اقبل حمزة بن عبد المطلب ـ اخو ابى لهب ـ ذات يوم متوشحا قوسه عائدا من رحلة صيد ، فلقيته امراة تقول :

« يا أبا عمارة ، لو رايت مالقى ابن اخيك محمد آنفا من أبى الحكم بن هشام ؟ وجده ها هنا جالسا فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره . »

فاحتمل حمزة الغضب ـ ولم يكن قد اسلم بعـــد ـ واندفع غير ملق بالا الى أحـد فى الطريق ، حتى عثر بأبى الحكم جالسا فى القوم بالبيت العتيق ، فأقبل نحوه

حتى اذا قام على راسه ، رفع القوس فشجه به شجة منكرة ثم قال :

« اتشتمه وأنا على دينه اقول مايقول ؟ فرد ذلك على ان استطعت ! »

وهكذا أسلم حمزة ، لأنه لم يطق ان يؤذى ابن اخيه بمراى منه او مسمع !

وكذلك لم يطق احد من بنى هاشم ان يخذل محمدا ، سواء فى ذلك الذين اسلموا منهم والذين لم يسلموا ،غير ابى لهب !

نقل السهيلى رواية عن ابن عباس :

« لما انزل الله تعالى : وانذر عشيرتك الاقربين ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اتى الصفا فصعد عليه وهتف : واصباحاه ! فلما اجتمعوا اليه قال : ارايتم لو اخبرتكم ان خيلا تخرج من سفح هذا الجبل ، اكنتم مصدقى ؟ قالوا : ماجربنا عليك كذبا . قال : « فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » فانبرى له ابو لهب قائلا : « تبا لك ، الهذا جمعتنا ؟ » فانزل الله تعالى :

« تبت يدا ابى لهب وتب ــ ما اغنى عنه ماله وما كسب سيصلى نارا ذات لهب ، وامراته حمالة الحطب ــ فى جيدها حبل من مسد »

ذلك لانها كانت تحمل الشوك فتطرحه على طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يمر

قال ابن اسحاق :

« فذكر لى ان ام جميل حمالة الحطب ، حين سمعت ما نزل فيها وفى زوجها من القرآن ، اتت رسول الله صلى

الله عليه وسلم وهو جالس فى المسجد عند الكعبة ومعه ابو بكر الصديق ، وفى يدها فهر من حجارة ـ قطعة تملأ الكف ـ فلما وقفت عليهما اخذ الله ببصرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ترى الا ابا بكر ، فقالت : يا ابا بكر ، اين صاحبك ، فقد بلغنى انه يهجونى ، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه . اما والله انى لشاعرة . ثم قالت :

مذممـــا عصينـــا
وامر ابينـــــا
ودينـــــه قلينـــا

وانصرفت ، فقال ابو بكر : يا رسول الله ، اما تراها راتك ؟ فقال : ما رأتنى ، لقد اخذ الله ببصرها عنى . »

□

وربما استيقظ ضمير ابى لهب مرة ، وغلا فى عروقه الدم الذى يحن الى ابن الاخ ، فثار مغضبا لما يرى من جور قريش على بنى هاشم . حدثوا أن ابا سلمة المخزومى ابن برة بنت عبد المطلب ، استجار بخاله ابى طالب ، حين ارادت قريش ان تفتنه عن اسلامه ، فمشى رجال من بنى مخزوم الى ابى طالب فقالوا له :

ـ لقد منعت منا ابن اخيك محمدا ، فمالك ولصاحبنا تمنعه منا ؟

قال : انه استجار بى وهو ابن اختى ، فان انا لم امنع ابن اختى لم امنع ابن اخى

وكان ابو لهب حاضرا ، فقال مغضبا : يا معشر قريش ،

والله لقد اكثرتم على هذا الشيخ ! ما تزالون تتوثبون عليه فى جواره من بين قومه ، والله لتنتهن عنه او لنقومن معه فى كل ماقام فيه حتى يبلغ ما اراد

فآثروا ان يبقوا على نصره لهم وقالوا :

« بل تنصرف عما تكره يا ابا عتبة » السيرة ٢/١٠

لكنها مرة واحدة يتيمة ، لم يذكر الرواة ان «ابا لهب » وقف مثلها اخرى ، بل ظل على مظاهرته اعداء قومه حتى مات

واعشى سحر « ام جميل » عينيه فلم يعد يبصر ، وقذف به وراء هاشميته ورجولته ، بل وراء الانسانية جميعا

حدثوا ان بنى هاشم والمؤمنين حين جهدوا من ضيق الحصار فى شعب ابى طالب ، كانوا اذا قدمت العير مكة واتى احدهم السوق ليشترى شيئا من الطعام لعياله ، يقوم ابو لهب عدو الله فيقول : يا معشر التجار ، غالوا على اصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئا ، فقد علمتم مالى ووفاء ذمتى ، فأنا ضامن الا خسار عليكم

فيزيدون عليهم فى السلعة قيمتها اضعافا ، حتى يرجع المسلم او الهاشمى الى اطفاله وهم يتضاغون من الجوع وليس فى يديه شىء يطعمهم به . ويغدو التجار على ابى لهب فيربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس ، حتى جهد المسلمون ومن معهم من بنى هاشم جوعا وعريا

▭

وادع الخبر بغير تعليق ، وادع معه ذلك الاستطراد الطويل الذى مضيت فيه بالرغم منى ، مستثارة بما قرأت عن ابى لهب وانا التمس اخبار ابنتى محمد ، فى

زواجهما الخائب بابنى ذلك العم الجاحد العاق ، وعودتهما الى ابويهما ، شفاء لحقد حماتهما ام جميل بنت حرب ، حمالة الحطب

وبين هاتيك السطور التى نقلتها ، اقرا مالم يكتب عن معاملة هذه العبشمية لابنتى محمد ، اذا صحت الرواية القائلة بأن الطلاق تم بعد انتقالهما الى بيت ابى لهب ، وليس قبل الدخول بهما كما تقول رواية اخرى« الاصابة٨/٣٨ »

واكاد المحهما وراء هذا كله ، فى تجربتهما القاسية المرة ، حين غادرتا بيتهما الاول الذى تظله اجنحة الحب والسلام، الى بيت كهذا حيث تتلقاهما ـ وهما فى جلوة العرس ـ امراة سليطة ركبها الشيطان ، فتلقى عليهما ظلها الثقيل صباح مساء ، وترصد حركاتهما وسكناتهما ، وتحاسبهما على النظرة والهمسة واللفتة ، وتنقم عليهما ما ترى فى سمتهما النبيل وملامحهما اللطيفة ، من مخايل السيدة « خديجة بنت خويلد » موضع غيرتها وحسدها

فاذا قابلت العروسان صنيع حماتهما بالتجمل والصبر ، اساءت الظن بوداعتهما فحملتها محمل الازدراء والترفع ، وازدادت الذلك شراسة وغلظة وجفاء

ولم تفكر احداهما فى الشكوى لابويهما ، فقد كانتا ابر بهما من ان تروعهما بالحديث عن افاعيل « ام جميل »

وكان الظن ان تجد كل منهما فى اختها متنفسا لكربها وموضعا لشكاتها ، لولا ان « ام جميل » كانت هنالك دائما ، تقف لهما بالمرصاد ، وتأبى ما وسعها الجهد ان تخلو الاخت باختها ، ولو استطاعت لاقامت بينهما سدا

وهكذا احتملت ابنتـــا محمـــد فى صمت وصـــبر ، حتى اراحهما الله من ذاك الكرب ، ونجاهما من كيد حمالة الحطب وعيشتها الغبراء !

على ان الحياة فى بيت ابيهما ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت قد تغيرت عما الفتا فى امسهما السعيد ، فولى عنها ما كانت تنعم به من راحة وهدوء

اولم يقل الرسول لزوجته : « مضى عهد النوم يا خديجة ! »

بلى ، وجاء عهد السهد والاضطهاد والامتحان والعذاب فى سبيل الله ، وان النبى ليعود الى بيته كلما خرج ، محزونا لما يجد من عنت قومه وصدهم عن سبيل الله ، فما تزال السيدة خديجة تثبته وتهون عليه ما يلقى ، حتى يزول ما به من حزن

ومع كل هذا العذاب ، طاب لرقية وام كلثوم ان تشاطرا ابويهما ما يلقيان فى سبيل الله ، وارتاحت نفساهما لاحتمال كل صنوف الاذى ، واستعذبتا الالم والتضحية فى تلك المعركة المقدسة

وخاب ظن حمالة الحطب وظن المشركين من قريش ، فلم يشغل « محمد » ـ صلى الله عليه وسلم ـ بابنتيه عن دعوته ، ولم يشق عليه رجوعهما الى بيته ، فقد نجاهما الله من محنة العيش مع ابنى حمالة الحطب ، ثم ما لبث ان ابدلهما خيرا منهما : زوجا صالحا كريما ، من النفر الثمانية الذين سبقوا الى الاسلام ، واحد العشرة المشهود لهم بالجنة ذلك هو « عثمان بن عفان بن ابى العاص بن امية بن عبد شمس »

اعزه الله فى الجاهلية فكان من اعرق فتيان قريش نسبا ، يلتقى مع الرسول الكريم من جهة الاب عند عبد مناف بن قصى ، ومن ناحية الام عند عبد المطلب بن هاشم ، فجدة عثمان لامه ، هى البيضاء ام حكيم بنت عبد المطلب جدالنبى

وكان الى هذا النسب العريق ، بهى الطلعة ، فخم السمت موفور المال ، رضى الخلق

ثم اعزه الله فى الاسلام فكان من السابقين الاولين

تقدم « عثمان » الى رسول الله يسأله شرف المصاهرة ، فزوجه صلى الله عليه وسلم ابنته « رقية » ، ولم ير زوجان قط اجمل منهما ولا ابهى

ولم تشارك «مكة» هذه المرة فى الاحتفال بالعرس البهى ، بل باتت قريش بفيظها مسهدة تفكر فى هذا الخصم العنيد الذى يزداد على الاضطهاد قوة وثباتا ، ويتحدى فى قلة عزلاء من صحابته ، قبائل قريش مجتمعة ، وفيها الجاه والكثرة والباس !

وعجبت لهؤلاء النفر الذين اتبعوه ، يؤثرونه على انفسهم واهليهم واموالهم ، ولا يترددون فى افتدائه بالمهج والارواح ، بل يرون الاستشهاد معه او فى سبيله مجدا وانتصارا

من هؤلاء ، من كان بالامس له عدوا ، ومنهم من تردد امدا قبل ان يؤمن برسالته ، ولكنهم جميعا ما كادوا يسلمون حتى التفوا حوله يبذلون له الحب محضا خالصا على نحو لا تعرف الدنيا له مثيلا

وتذاكرت قريش ليلتئذ صبر المسلمين على محنة

التعذيب فى مستهل المبعث ، فقد « وثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ، وبرمضاء مكة اذا اشتد الحر » حتى يفتنوهم عن دينهم ، فيؤثر احدهم أن يموت على أن يرتد الى دين الكثرة الغالبة !

وطال ليل قريش وهى تذكر « عثمان بن عفان » الذى رضى ان يبيع اهله وعشيرته ودنياه فى سبيل رضى محمد وربه ، وانه ليعلم ما يلقى اصحاب « محمد » من اذى ، ويقدر انه باتباعه الدين الجديد ، قد حكم على نفسه بالنبذ من المجتمع القرشى الذى احله مكانا مرموقا

▭

ولو نظرت قريش ليلتئذ بظهر الغيب ، لرأت فتى امية : « عثمان بن عفان » يهاجر من مكة ، موطن آبائه ومهد طفولته ومناط عزته ، الى بلد ناء وقوم غرباء

« ذلك ان محمدا ــ صلى الله عليه وسلم ــ لما رأى ما يصيب اصحابه من البلاء ، وانه لا يقدر ان يمنعهم ، قال لهم : لو خرجتم الى ارض الحبشة فان بها ملكا لايظلم عنده احد ، وهى ارض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما انتم فيه ! »

فكان «عثمان بن عفان» أول من هاجر الى الحبشة ، وهاجرت معه زوجته السيدة «رقية» على قرب عهدهما بالزواج

وتجلد المهاجر وهو يلقى نظرة وداع على البلد الحبيب

أما «رقية» فلم تملك دمعها ، وهى تطوف بمغانى صباها

مودعة ، وتعانق اباها وامها واخواتها الثلاث ، قبل ان تتبع زوجها الى ذلك البلد النائى المجهول

وتمهلت فى مسيرها الى حيث كانت راحلتها تنتظر ، فلما آن أوان الرحيل تلفتت وراءها لتملأ عينيها من الوطن فحال الدمع دون ماتبغى

وكذلك سارت الجمال وئيدا تريد أن تتزود من عبير أم القرى ، فلما خرجت الى الصحراء العارية الجـــرداء ، انطلقت خفافا ، تتسمع غناء الحادى :

الاهل والأوطان فراقهم صعب
لكنـــه الايمـــان فداؤه القـــلب
والروح والأبدان فليقبـــل الرب
فليقبـــل الرب

وهز الصوت الشجى قلب « رقية » فأصغت اليه وهى ترتجف انفعالا وتأثرا ، ثم أطلت من هودجها لعل أثرا من مكة لايزال يلوح من بعيد ، فاذا زوجها « عثمان » على قيد خطوة منها ، يرنو اليها فى عطف مشوب بالعتاب !

وفهمت « رقية » ما يهجس فى خاطره ، فأشرق وجهها بابتسامة وضيئة وقالت :

ـ الله معنا ، ومع الذين تركناهم برغمنا فى جوار البيت العتيق

ثم أستدبرت أحب أرض ، وقد هون عليها محنة الفراق ان « عثمان » الى جانبها ، واكرم به صاحبا وعشيرا

▭

وفى أول مرحلة من الطريق ، اناخت الابل ريثما تجمع

المهاجرون الاولون فى سبيل الله ، فبلغت عدتهم عشرة، فيهم من بنى عبد شمس ـ آل عثمان ـ أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، اخو هند ، وصهر ابى سفيان ، تصحبه زوجته سهلة بنت سهيل بن عمرو العامرية

ومن بنى اسد بن عبد العزى بن قصى ـ أخوال رقية ـ الزبير بن العوام بن خويلد

ومن بنى عبد الدار بن قصى ـ ابناء عم عثمان ورقية ـ مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار

ومن بنى زهرة ـ أخوال الرسول ـ عبد الرحمن بن عوف الزهرى

ومن بنى مخزوم ، عبد الله بن عبد الاسد ، ابن عمة الرسول ، برة بنت عبد المطلب ، تصحبه زوجته هند بنت زاد الركب ، ابى امية بن المغيرة المخزومى التى تزوجها الرسول بعد « أحد »

وتبادل المهاجرون الاولون تحية الاسلام ، ثم قاموا جميعا للصلاة ، يؤمهم عثمان بن مظعون الجمحى صاحب الرسول، فلما قضوا الصلاة رفعوا وجوههم الى السماء يدعون الله ان ينصر دينه ، ويحمى رسوله من كيد المشركين

واستقبلوا الجنوب راحلين ، وقد استمرأوا ما يملأ قلوبهم من شجن ، وطاب لهم ان يكتووا بنار الغربة فى سبيل دينهم الحق ، والتمسوا العوض عمن فارقوا من الاهل والاحباب ، فى هؤلاء الصحب الكرام ، رفاق السفر والاخوان فى الدين والهجرة

▭

ورحبت الحبشه بالمهاجرين الاولين ، واوسعت لهم فى

أرضها مكانا سهلا ، ثم مالبثت ان استقبلت افواجا جديدة من اخوانهم المسلمين ، حتى بلغت عدتهم ثلاثة وثمانين غير أبنائهم الذين خرجوا بهم صغارا ، أو ولدوا فى المهجر

وسر «رقية» أن تجد فيهم من بنى هاشم : ابن عم أبيها « جعفر بن أبى طالب » ، ومعه امرأته «أسماء بنت عميس»

ومن بنى أمية ، آل زوجها عثمان ، عمرو بن سعيد ابن العاص بن أمية ، وأخاه خالدا ، ومعهما زوجتاهما

ومن بنى اسد ، عبد الله بن جحش ـ ابن أميمة بنت عبد المطلب عمة الرسول ـ وأخاه عبيد الله ، معه امرأته أم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب ، التى تزوجها الرسول بعد سنين

ومن اخوالها بنى زهرة ، عامر بن أبى وقاص بن أهيب ابن عبد مناف بن زهرة

ومن بنى عامر ، ثمانية نفر منهم السكران بن عمرو ، ومعه امرأته سودة بنت زمعة بن قيس ، التى تزوجها الرسول بعد عام الحزن

وأحاط المهاجرون العشرة الاولون بالوافدين يسألونهم كيف تركوا الرسول ، وكيف حال الاهل والصحابة بمكة !؟

قالوا : على العهد بهم ، لم ينسوا من هاجروا ..

وحدثوا أن « النبى » افتقد أنباء ابنته ، حتى اتت امرأة اخبرته صلى الله عليه وسلم أنها رأت رقية وزوجها ، فقال :

« منحهما الله ، ان عثمان اول من هاجر بأهله »

الاصابة ٨٣/٨

لم تضق الحبشة بالوافدين الثمانين ؛ كما لم تضق بمن سبقوهم ، بل امنهم «النجاشى» واحسن جوارهم ، وتركهم احرارا يعبدون الله لا يخافون على ذلك أحدا ..

هنالك رفع « عبد الله بن الحارث بن قيس » صوته منشدا وهو يرجو أن يسمع من بمكة :

ياراكبـــا بلغن عنى مغلغـــلة
من كان يرجو بلاغ الله والدين
كل امرىء من عباد الله مضـــطهد
ببطن مكة مقهور ومفتـــــون
انا وجـــدنا بلاد الله واســـعة
تنجى من الذل والمخزاة والهون
فلا تقيموا على ذل الحياة وخز
ى فى الممات وعيب غير مأمون

ثم انثنى الى قلبه المثقل بأشجان الغربة ، فهاجت مواجعه لما ذكر من بغى قريش ، وقال :

ابت كبدى ـ لااكذبنك ـ قتالهم
عـلى ، وتـأباه عـلى انـاملى
وكيف قتـــالى معشرا أدبوكم
على الحق ان لا تأشبوه بباطل

وقال « عثمان بن مظعون » يعاتب ابن عمه وكان شريفا فى قومه :

اأخرجتنى من بطن مكة آمنـــا
وأسكنتنى فى صرح بيضاء تقذع
قريش نبالا لا يواتيك ريشـــها
وتبرى نبالا ريشها لك اجمـع

وحاربت اقواما كـراما اعـزة
واهلكت اقواما بهم كنت تفـزع
سـتعلم ان نابتك يوما ملمة
واسلمك الاوباش ، ماكنت تصنع !

وبلغت هذه الاصوات ومثلها مكة ، فأفزعت قريشـا فوق مابها من فزع

واطار النوم من عيونها ، ان اصحاب محمد قد امنوا بأرض الحبشة واصابوا بها دارا وقرارا ، فائتمر المشركون بينهم أن يبعثوا منهم رجلين من دهاتهم ، لكى يفسدوا مابين النجاشى وبين المهاجرين المغتربين

ووقع اختيارهم على عبد الله بن ابى ربيعة ـ والد عمر ـ وعمرو بن العاص بن وائل ، وجمعوا لهما هدايا للنجاشى ولبطارقته ، فانطلقا بها على مراى ومسمع من محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن بقى الى جانبه من اصحابه وآله

واشفق « ابو طالب » على من بأرض الحبشة ـ وفيهم ولده جعفر ، وولدا ابنتيه اميمة وبرة ، ورقية حفيدة اخيه عبد الله ـ من مكيدة عمرو وصاحبه ، فأنشد شعرا يستثير فيه كرم « النجاشى » ويحضه على ان يحمى جواره :

الا ليت شعرى كيف فى النأى « جعفر »
وعمـرو ، وأعـداء العـدو الاقارب ؟
وهل نالت فعـال النجاشى جعفـرا
وأصحابه ، او عاق ذالك شـاغب ؟
تعـلم ، ابيت اللعن ، انك ماجـد
كـريم ، فلا يشـقى لديك المجانب

وانك فيض ذو ســـــــجال غـزيرة
ينـــــال الاعادى نفعهـــــا والاقارب

فهزت قريش رأسها لما سمعت نداءه ، وقال قائلهـا مستهزئا : ما يبلغ صوت الشيخ من مكيدة عمرو وصاحبه؟ وماذا تجدى الكلمات مع الهدايا التى حملها مبعوثا مكة الى النجاشى وبطارقته ؟

وكان المهاجرون فى مقامهم النائى ، يرهفون اسماعهم الى ماتناثر من شائعات شتى مبهمة عن ائتمار قريش بالمسلمين المغتربين فلا يكادون يلقون اليها بالا ، حتى رابهم ذات يوم وصول عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة الى هناك والتماسهما لقاء البطارقة واحدا بعد الآخر

ثم ما لبث المهاجرون أن تلقوا دعوة النجاشى ليتحدث اليهم فى امر ذى بال ، فذهبوا وهم يتساءلون :

ـ ماتقولون للرجل اذا جئتموه ؟

وكان الجواب الذى اجمعوا عليه :

ـ نقول والله ما علمنا ، وما امرنا به نبينا

وسعت المهاجرات الى منزل رقية بنت النبى ، وقد خامرهن شىء من القلق ، فاذا لديها « ام سلمة ، هند بنت زاد الركب » تحدث عما علمت من مكيدة الرجلين

قالت :

ـ هو ماسمعتن من ائتمار قريش بنا لما بلغها انا جاورنا بالحبشة خير جار : امنـــا على ديننا ، وعبدنا الله تعالى

لا نؤذى ولا نسمع شيئا نكرهه ، فبعثوا هذين الرجلين معهما هدايا مما يستطرف من متاع مكة ، وقالوا لهما أن يدفعا الى كل بطريق هديته ، قبل أن يكلما النجاشى فينا ، ثم يقدما الى النجاشى هديته ، ويسألاه أن يسلمنا اليهما قبل أن يكلمنا

« فخرجا حتى قدما الحبشة ، ففعلا .. وقالا لكل بطريق منهم : انه قد ضوى الى بلد الملك غلمان منا سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينكم ، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا الى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم اليهم ، فاذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم الينا ولا يكلمهم ، فان قومهم أعلى بهم عينا ـ ابصر بهم ـ واعلم بما عابوا عليهم

« فوعدهما البطارقة خيرا ، ثم انهما قدما هداياهما الى النجاشى فقبلها منهما ، ثم كلماه بمثل ما كلما به البطارقة ، فقالت البطارقة حوله : صدقا أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عينا واعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم اليهما فليرداهم الى بلادهم وقومهم

« ففضب النجاشى وقال : لاها الله ! اذن لا اسلمهم اليهما ولا يكاد قوم جاورونى ونزلوا بلادى واختارونى على سواى حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان فى امرهم ، فان كانوا كما يقولان اسلمتهم اليهما ورددتهم الى قومهم ، وان كانوا على غير ذلك منعتهم منهما واحسنت جوارهم ما جاورونى

« وهذا هو قد أرسل الى رجالنا يدعوهم ، فلننتظر ما الله يرضى لنا »

وطال انتظارهن قبل ان يعود الرجال من قصر النجاشى ويحدثوا عما كان :

استقبلهم النجاشى وقد جمع أساقفته حوله ومعهم صحفهم منشورة ، فسألهم :

ـ ماهذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به فى دينى ولا فى دين أحد من هذه الملل ؟

فأجاب عنهم « جعفر بن أبى طالب » :

ـ أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية نعبد الاصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسىء الجوار ويأكل القوى منا الضعيف ، حتى بعث الله الينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا دونه من الحجارة والاوثان، وامرنا بصدق الحديث واداء الامانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات ، وامرنا ان نعبد الله وحده لانشرك به شيئا ، وامرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا الى عبادة الاوثان عن عبادة الله تعالى ، وان نستحل ماكنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا الى بلادك واخترناك على من سواك ، ورغبنا فى جوارك ورجونا الا نظلم عندك ايها الملك »

فصمت النجاشى مليا ثم سأل :

ـ هل معك مما جاء به عن الله من شىء ؟

اجاب جعفر : نعم

قال النجاشى : فاقراه على

فتلا جعفر صدرا من سورة مريم

قالوا : فبكى والله النجاشى حتى اخضلت لحيته ، وبكت اساقفته حتى اخضلوا مصاحفهم ، ثم قال :

ـ ان هذا والذى جاء به « عيسى » ليخرج من مشكاة واحدة

والتفت الى عمرو وعبد الله قائلا :

ـ انطلقا ، فلا والله لا اسلمهم اليكم ولا يكادون

فانصرفا ،اما عمرو فلم يفقد ثقته فى دهائه ولا استسلم للهزيمة صاغرا ، بل قال مهددا : والله لآتينه غدا عنهم بما أستأصل به خضراءهم ـ يعنى شجرتهم التى منها تفرعوا ـ

وأما عبد الله بن ابى ربيعة ، فأخجله ان يكون النجاشى الغريب ، ابر بجيرانه منه ، ومافيهم من لايمت اليه بقربى أو رحم

قال لعمرو : لانفعل ، فان لهم أرحاما وان كانوا قد خالفونا

ورد « عمرو » فى اصرار :

ـ والله لاخبرنه انهم يزعمون ان عيسى بن مريم عبد !

ومضى النهار كله وقطعة من الليل ، وعمرو بن العاص يدبر لفده ، أما المهاجرون فباتوا آمنين لايخافون من النجاشى غدرا ، وقد اجمعوا رأيهم ان يجيبوه اذا سألهم عن عيسى بن مريم ، بما قال الله وماجاءهم به نبيهم محمد ، وليكن بعد ذلك مايكون

فلما اصبحوا دعاهم النجاشى وسألهم عما يقولون فى عيسى فأجاب جعفر :

ـ نقول فيه الذى جاءنا به نبينا صلى الله عليه وسلم : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها الى مريم العذراء البتول

قالوا : فمد النجاشى يده الى الارض فأخذ منها عودا وقال لجعفر :

ـ والله ما عدا عيسى بن مريم ماقلت هذا العود ..

ثم امســـك لحظة ، وجعل ينقل بصره بين البطارقة ، وعمرو وصاحبه ، حتى استقر على المهاجرين فقال :

« اذهبوا فأنتم آمنون بأرضى ، من سبكم غرم ـ كررها ثلاثا ـ وما أحب أن لى جبلا من ذهب ، وانى آذيت رجلا منكم »

والتفت من بعد ذلك الى بطارقته قائلا :

« ردوا عليهما هداياهما ، فلا حاجة لى بها ، فوالله ما اخذ الله منى الرشوة حتى رد على ملكى فآخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فى فأطيعهم فيه »

ورجع عمرو وعبد الله الى قريش بخفى حنين

وأقام المهاجرون مع خير جار ماشاء الله لهم أن يقيموا على أن قلوبهم ظلت أبدا تنزع الى مكة ، وتحن الى من تركوا بها من الاهل والاحباب

وظلت اسماعهم مرهفة ، تتلهف على انباء الرســـول وصحبه فى حربهم المقدسة مع عبدة الاوثان

ولعل السيدة « رقية » كانت أشد المهاجرين حنينـــا الى مكة ، ولعلها ما افتقدت أبويها وأخواتها من قبل ، مثلما

افتقدتهم آنذاك ، فلقد اثرت الاحداث الشداد التى مرت بها فى صحتها أيما تأثير ، فأسقطت جنينها الاول ، حتى خيف عليها من فرط الضعف والاعياء

لكنها وجدت من رعاية زوجها وحبـــه ، ومن عطف المهاجرين وعنايتهم ، ما أعانها على اجتياز الازمة الحرجة ، ريثما عاودتها العافية بورود الانباء من مكة ، ان قريشـــا يئست من الرسول وصحبـه ، فرفعت الحصـار المنهك الذى ضربته على الهاشميين

وأضافت الشائعات أن قريشا ثابت الى رشدها لما رات من عجيب ثبات النبى وصدق ايمان الذين اتبعوه ، فمالت طائفة منها الى الاسلام عن تأثر واقتناع ، ورغبت اخرى فيه التماسا للغنم والمجد حين يعلو أمر محمد وينتشر الدين الجديد

وقد أصغى مهاجرة الحبشة الى هذا الذى قيل وشاع فهفت قلوبهم الى العودة الى الوطن

ولم يقو بعضهم على مغالبة ذلك الحنين المستشـــار ، فتهيئوا للرحيل على عجل ، يحدوهم الشوق الى أحب ارض واعز موضع ، على حين آثر آخرون أن يتلبثـوا فى مهجرهم ، ريثما يستيقنون مما قيل عن مهادنة قـريش للرسول صلى الله عليه وسلم واسلام كثرة منها

▭

سار الركب فى طريق مكة ، وقد بلغ عددهم ثلاثةوثلاثين رجلا يتقدمهم « عثمان بن عفان » وزوجتـــه السـيدة

« رقية » والزبير بن العوام ابن اخت السيدة خديجة ، وعبد الله بن جحش ابن عمة الرسول ، وابو سلمة بن عبد الاسد معه امراته « أم سلمة ، هند بنت ابى أمية » ، والسكران بن عمرو معه امراته « سودة بنت زمعة »

وراحوا خلال سفرهم الطويل يعللون انفسهم بلقاء الاحباب ، ويتشاغلون بتمثل ما ينتظرهم فى الوطن من انس وطمأنينة

حتى اذا عبروا البحر واستقلوا رواحلهم ساعين الى البلد العتيق ، خدرتهم النشوة وتركوا خيالهم يحملهم على اجنحته السحرية الى وادى الاحلام

الى أن بلغوا مشارف مكة ، فكانت اليقظة المروعة ..

فهناك على الصخور الملتهبة ، راوا بعيونهم التى مازالت بها بقية من خدر النشوة ، نفرا من اخوانهم المسلمين المستضعفين ، تسومهم زبانية قريش سوء العذاب

واخذت العائدين صيحات من هنا ومن هناك ، تعدهم بالويل والهلاك

وصمت الحادى ، وطارت النشوة ، وتمزقت الرؤى ، وتبعثرت الاحلام

▭

ولبثوا هنالك يومهم ، حتى اذا ادبر النهار دخل بعضهم مكة فى جوار من الوليد بن المغيرة المخزومى ، او ابى طالب ابن عبد المطلب الهاشمى

وعلى اثرهم دخل الباقون مستجيرين بالحرم الاقدس، وعلى وجوههم نور الاستشهاد

وآبت « رقية » الى بيت أبيها مشوقة مجهدة ، فخفت أختاها أم كلثوم وفاطمة للقائها ، وتشبثتا بها معانقتين ، وهما تغالبان الدمع وتتكلفان التجلد

وأفلتت من عناقهما وسألت مستريبة :

ـ أين أبى ، وأين أمى ؟

أجابتا :

ـ أبوك بخير ، وقد خرج للقاء العائدين معك من مهاجرة الحبشة

ثم اختلجت شفاههما فى تأوه مكتوم

وعادت رقية تسأل وقد أوجست خيفة :

ـ وأمى ، أين هى ؟

فأطرقت « أم كلثوم » صامتة لا تجيب ، أما « فاطمة » فغادرت الغرفة وهى تنشج باكية

هنالك كفت « رقية » عن أسئلتها ، وسارت مترنحة نحو مخدع أمها الراحلة حيث تهالكت على فراشها جامدة العين زائغة البصر ، مثلجة الاطراف

الى أن جاء ابوها صلى الله عليه وسلم ، فأذاب ذلك الجمود القاتل بحرارة لقائه ، وأزاح بحنوه ذلك الركام الصخرى الذى جثم على قلب فتاته

واسعفها الدمع ماشاء لها حزنها ولوعتها ، ثم أوت الى الصدر الرحب الكريم ، وثابت الى السكينة والصبر

□

لم يطل بها المقام بمكة بعد ذاك ..

هاجر ابوها النبى الى يثرب ، وكذلك هاجرت هى فى

صحبة زوجها « عثمان بن عفان »

وفى دار الهجرة ، وضعت طفلها عبد الله بن عثمان ، فملأ عليها منزلها الجديد أنسا ، وأقبلت عليه تريد ان تنسى به مرارة ثكلها لجنينها البكر ، ولوعة مصـــابها فى أمها ، وماذاقت فى هجرتها من شجن الغربة

وحسبت انها قد استوفت حظها من الآلام ، لكن الله تعالى امتحنها بمصاب جديد

مات « عبد الله » طفلا بنقرة من ديك ، فترنحت رقيـــة تحت وطأة الثكل المرير المضاعف ، صريعة الحمى

وأقام « عثمان » الى جانبها يمرضها ويرعاها ، حتى اذا تناهى الى سمعه صوت داعى الرسول يؤذن أن حى على الجهاد ، ويستنفر المهاجرين والانصار للقاء عدوهم فى « بدر » ، ود عثمان لو لبى الداعى الكريم ، لكن قلبه لم يطاوعه على فراق « رقية » التى كانت تعالج ما يشبـــه سكرات الموت ، فتخلف عن شهود موقعة بدر مكرها ، وراح يشهد معركة الموت فى اعز من له !

وقسا الصراع وطال ، ثم رفت روحها على شفتيها فى حشرجة وانية ، فحطت عيناها على زوجها المعذب ، وغابت عن الوجود

وقام « عثمان » فأغمض عينيها ولثم جبينها وأناملها ثم اصغى الى هتاف البشرى بانتصار المسلمين فى «بدر»

▭

وجاء الاب الثاكل فدنا من ابنته الراقدة يودعها بادى الحزن والاسى ، ثم انثنى فى رفق نحو ابنته « فاطمة » التى

اكبت على مضجع أختها تبكى ، فجعل يمسح دموعهـــا بطرف ثوبه (الاصابة ٨/٨٣)

وهنا لم تتمالك النساء أنفسهن أمام المشهد الفاجع ، فانسحبن خارج الغرفة مجهشات بالبكاء وقد تخلى عنهن ماكن يصطنعن فى حضرة الرسول من تجمل وتصبر

وهاج نحيبهن غضب « عمر بن الخطاب » فزجرهن فى عنف وقسوة ، محاولا أن يأخذهن بما يجب لمثل هـــذا المكان من سكينة ووقار ، لكن الرسول الرحيم كفه عنهن قائلا :

« مهما يكن من العين ومن القلب فمن الله والرحمة ، ومهما يكن من اليد واللسان فمن الشيطان »

وصلى الاب النبى على ابنته رقية

وشيعت «يثرب» جثمان بنت الرسول، ذات الهجرتين، حتى ووريت الثرى الطيب الذى ارتوى يومئذ بدماء الابرار من شهداء « بدر »